

في سبيل الاصمراع

أخلاقنا...

للأستاذ علي الطنطاوي

نحن اليوم (في أكثر بلدان الشرق الإسلامي) في دور بقطة ، ومطلع نهضة ، ولكل نهضة جسم وروح ؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها ، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها ، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها ؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والثل العليا . فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس ، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب ، وروح الديمقراطية الإرادة المشتركة وضمان المصلحة العامة ، وروح المدرسة نشئة جيل المستقبل على الثل العليا ، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير ... فهل امتدت نهضتنا إلى الروح ، أم هي قد اقتصرت على الجسم وحده ، لم نغن إلا به ، شأننا في كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر ؟

الجواب عند القراء ، لا حاجة إلى إثباته في هذا المقال . ولكن الحاجة ماسة إلى كتاب ومرين وعلماء ، يستقرون أخلاقنا التي نحن عليها ، ويصفونها ويقومونها ، ويرون ما يجب أن يبقى فيعملون على تثبيتته ونشره ، وينظرون ما ينبغي أن يعدل أو يعدل ، فيسخرّون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتمديله ، لنشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التي تستطيع أن تبلغ بها ما تريد من مجد وعلاء ، وتقبوا المكان اللائق بها بين الأمم ، وتأتي هذه الأخلاق التي ورثناها من الحكم التركي الطويل ، وبلت بنا قمر الهاوية التي نحاول اليوم النجاة منها ، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التي قبسها منا الغربيون فأفلجوا بها ونجحوا ...

من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها أننا لا نفر التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين . فالفرد منا عامل منتج ، ولكن الجامعة عاجزة عقيمة ، ومن نظر إلى انتشار الشركات في

الغرب على اختلاف أنواعها ، والجميلات على تنوع غالياتها ، والأحزاب والنوادي ، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل ... وعلة ذلك الأناية المفرطة ، والثرة الجامعة ، وحب الذات الطاغى ، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة ، رئيسها إن كان لها رئيس ، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس ، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة ، وأن يكون له الرأي إن أخذت الآراء ... بل إنا نرى كلا منا بمطل أعمال الآخرين وبيطاهما ، ويعمل على هدمها ، بينما نراه مؤمناً بلزومها ، معتقداً بالحاجة إليها ، ساعياً إلى القيام بمثلها ، فهو يعرف الحاجة إلى ناد أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت ؛ وهو يعلم الحاجة إلى مدرسة دينية ويدعو إليها ، ولكنه إذا رآها قد فتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية ، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها . ذلك أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة ، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة ، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها ، خان المصلحة وعصى الله نيرضى أثره ويستجيب لأنانيته ... وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسمي إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لا يتحدث إلا بحديثها ، ولا يشغل إلا لتأسيسها ، فإذا تم له الفلاح بعد الثمب والكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسمى إلى هدم ما بناه بيده ...

هذا داء من أشد أدوائنا الخلقية ، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة ، فشت أعضاءها وعطلت أعمالها : متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟ وأين هو الاخلاص ، وأين هو الصدق ، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة ، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه ؟

ومن هذه الأخلاق أننا لا نفر قيمة الوقت ، وأنا نصنع أوقاتنا سدى ، ونذهب أعمارنا عبثاً لا نفر لها قيمة وهي أثنى ما نملك . وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته ، وينفقه

وانظر إلى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب في ليال ويحفظه كله ، والموظف إذا اضطر إلى العمل ، أو الصحفي إذا كان موسم من مواسم الصحافة ، والمؤلف إذا طمع في الجائزة الكبرى ؛ أنظر إلى هؤلاء كلهم ، وانظر إلى هؤلاء الأفراد المتنازعين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها ، ويؤلفون في الأدب وينبغون فيه ، ويطلقون كثيراً من الكتب ، ولا يقصرون في حقوق أنفسهم وأهلبيهم ، وحقوق الناس ، تعلم أن الوقت واسع جداً ، ولكن الجاهل المهمل يضيئه على نفسه

ومن الأخلاق التي يجب أن نتعلمها تقدير الصلحة العامة . وإهالنا هذه المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات التي تتالت على بلدان الشرق الإسلامي في هذه القرون الأخيرة لم تكن من الشعب ولا إلى الشعب ، ولم تكن تحرص على مصالحه ، فزالت ثقته بها ، ونظر إليها نظره إلى عدو مقاتل ، وغدا يرى كل أذى يلحقه بها ، أو مال يستلها إياه ، أو حق لها يضيئه ، يرى كل ذلك بطرلة وغرأ ، وغدا كل واحد منا يسعى جهده ليفر من الخدمة العسكرية أو يحوط بحيلة تنجيه من دفع الضرائب ، أو يتوسل بوسيلة إلى اختلاس مال الخزينة . ولعل له في ذلك عذراً ، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب ، والضرائب لحيايتها هي ؛ وكان مال الخزينة مالها ينفق على أفرادها . ولا تزال الموازنة عندنا إلى الآن مصروفاً ثلثها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً ، والثلث أو مادونه على المصلحة التي أنشئت من أجلها الحكومة ونحن في حاجة إلى التخلص من هذا المرض . نحن في حاجة إلى الإيمان بأن مصلحة الفرد في مصلحة المجموع وأن رفعتهم في رفعة الأمة ... يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة : ماذا عملت لأجل الأمة ؟ بماذا خدمت اليوم الوطن ؟ هل أحسنت إلى سائل ؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية ؟ هل تعلمت مسألة ناعمة ؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك ؟ ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عند ما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم إلى النوم

في علم أو أدب أو شيء مما ينفذ الناس ، لم يعدم من الثقل من يضيع عليه وقته ، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء أو أضر ... وما أظن أن في القراء من لا يذكر حادثة في هذا الباب ... كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة ، وكان عليّ محاضرة لم يبق دون موعدها إلا مسافة الطريق ، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريق فاعترضني رجل كبير كان ناظراً للمدرسة الثانوية التي كنت فيها وله في البلد حرمة ومقام ، فأقبلت عليه أحبيه وأفهمته برفق أن عليّ محاضرة قد حان موعدها فقال : طيب ... لحظة . وانطلق يتكلم ، فلا والله ما سكنت إلا بعد ساعة ونصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة عليّ ، وأنا أتململ وأتمرك ويريد وجهي وأحس النار تشتعل في عروقي ... فلما انتهى قال :

— أظن أننا وقفناك ... عدم المؤاخذه !

قلت : أستغفر الله ، ومضيت عنه ...

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية ... لاشك في أنها من أشدها وأدواها لأن حفظ الوقت آكد وسيلة إلى النجاح ، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع . أذكر أن الدكتور نمر تحدث إلى قراء المقتطف في المدد الخاص بعيد المقتطف بين لهم أن أتمن ما استفاد من الأمريكيين في كليتهم هو تقدير الوقت ، وأن ذلك هو الذي أعانه وزميله الكبير الدكتور صروف على النجاح وأنماح لها تحقيق هذا المشروع العظيم ، والأمريكان خاصة والبريون على التعميم يعرفون كيف يستفيدون من أوقاتهم ، فيقوم أحدهم في اليوم بأعمال لا تقوم بمثلا الجماعة منا في أسبوع . وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية الضخمة ، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثمائة فما فوقها .. كانوا يحسنون الاستفادة من أوقاتهم ، ولا يدعون دقيقة واحدة تمر إلا في عمل مفيد ، أو راحة مقدرة ، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال .. والوقت لا يضيع بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به . ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من عمره هدرأ في المقاهي أو دور الطو ، وفي الأحاديث الفارغة ، ومطالعة الصحف الجوفاء ، والمجلات المؤذية ، وقدر ما يمكن أن يعمل في مثل هذا الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الأمر ورأى شيئاً عظيماً

ومن هذا الباب إطاعة القوانين واحترام النظام ، ذلك الذي لم نتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غير (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لنير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نحترمها ، ولكننا دخلنا اليوم في طريق الاستقلال (أو كأن قد) وصرنا نضع قوانيننا (إلى حد ما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ في نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها ، لا خوفاً من العقاب بل لأن إطاعتها واجبة

ومن هذا الباب أو ما هو شبيه به احترام الراحة العامة . نمت ليلة في فندق كبير في بيروت ، فنزل في الغرفة اللاصقة بغرفتي جماعة من أكابر حلب حلوا بعد نصف الليل فبمشوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق ، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكله بصوت يوقظ الموتى ، فلم يبق حتى في الفندق إلا قام . ولما عاتبوه ولأموه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصور أنه أتى أمراً نكراً

وانحدرت مرة من الأعظمية إلى بقداد في سيارة عامة من هذه السيارات التي يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه على ركبته وألقى برقبته على ثيابه ، ورأيت الناس ينظرون إليه نظر المقر الموافق فاضطرت إلى النزول من غير أن أشتبك معه بقتال

وكثيراً ما نسمع رجلاً أو جماعة يمرون في الشارع فيبيل الصبح فيأخذهم الطرب فيفنون بمنزل الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب ، ولا يقدرون أو يتصورون أنهم سيثبون إلى أحد ولا يعضي على الواحد منا يوم لا يرى فيه ما يسوء ويزعج من بصاق في الترام أو المقهى ، أو حديث في المكتبة العامة ، أو خصومة حلمية في المسجد ، أو غير ذلك من المزعجات المنفصات التي لا يزيلها إلا عناية المدرسة بتعليم الطلاب احترام الراحة العامة ، وحت الصحف الشعب على ذلك ...

ومن الأخلاق التي يجب أن نسرع إلى تعلمها احترام الواجب والاستقامة والاصفاء إلى صوت الضمير . إن المعلم

لا يتورع إذا أمره رئيس أو رجاء صديق أو نالته منفعة ، أن ينجح التلميذ الذي يستحق السقوط في الامتحان ، وأن يزيد في الدرجات ، وأن يفعل كل شيء ؛ والقاضي لا يمتنع عن تبرئة الظالم وعقاب المظلوم ؛ والوزير لا يتقاعس عن إثارة الشفاعات والوساطات على الكفريات والشهادات ؛ والطبيب لا يبال بأن يجهض أو يأتي كل أمر يستطيعه مادام في ذلك لذة له أو فائدة ؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يملطونها ؛ ولا تكاد تجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً ، وضحي في سبيل القيام به بكل شيء . ولا أعني أن كل المعلمين أو القضاة أو الوزراء أو الأطباء ممكبون سبيل الشرف مستمعون للواجب ، ولكن الذي أعنيه أن بهم من هذا شأنه ، وأن احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً دائماً ، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه ، كل أولئك مقصرون لا يولون هذا الأمر ما يستحق من العناية والاهتمام في حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى في بناء الأمم

ونحن في حاجة إلى تعلم الصدق ، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شيء علينا ، فنحن نكذب في الأمور الهينة ونكذب في الجلية ، ونعلم أولادنا الكذب . من منا لا يقرع يابه فيقول لابنه : قل له إن أبي ليس هنا ؛ ومن منا ياتي رفيقاً له أو رجلاً يعرفه فيقول له : كيف حالك أو زيك ؟ فلا يقول له : بناية الشوق ، وهو لا يشاققه ولا يفكر فيه ، وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمته ... فجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب . ومن جرب أن يصدق يوماً كاملاً رأى المعجائب ، وقد أدرك ذلك العامة فجاء في أمثالهم (الصادقة) : الكذب ملح الرجال ، والميب على الذي يصدق ...

هذا وشبهه (وما أكثر أشباهه) روح النهضة وقوامها ، فإذا لم تمتن به الحكومات والأحزاب والجمعيات والمدارس ، ومن يشتغل بالوطنية ، ويبت في نفوس الأطفال ، ويوضع في نظم التربية والتعليم ، كانت نهضتنا جسماً لا روح فيه !

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

على الطنطاوي

المدرس في الكلية الشرعية ببيروت